٦ ـ بين المعرى ودانتى

فى رسالة الغفران والكوميدية المقدسة

بقلم محمود احمد الشنوى

الوطنية فى الشاعرين

كأنى بالمعرى يختص رسالة غفرانه بخيال النعيم والجحيم . ومساجلة الشعراء والأدباء ، والنحاة والرواة . ثم بالرد على ابن القارح والحديث عن بشار والمتنبى وصالح بن عبد القدوس والحلاج والصنادقى وغيرهم من المتألهين والمتزندقين مما بدأه ابن القارح بالحديث عنهم فى رسالته . فلم يكن فى كل مواقف (رسالة الغفران) ما يثير فى نفسه الحنين الى الوطن ، ولو أن موقفاً من مواقف رسالته ذكره بالوطنية أو تعمد هو أن يخلق المواقف

تكتب بها المعزوفات الفنية ، فخدمت الموسيقى الشرقية خدمة جلى ، وكان لها الأثر الظاهر فى تقدمها وحفظ كنوزها من الفناء ...

— ٨ —

وأما الآلات المستعملة لدينا فى الموسيقى الشرقية عامة فهى : العود ، والقانون ، والطنبور ، و « الكمان » والناى ، والمزمار ، والدف ؛ والطبلة ، ويوجد آلات شرقية وعربية غير هذه كثيرة ولكنها مهملة ، أو غير صالحة لعزف القطع الفنية ؛ ثم أضيفت آلات جديدة من الموسيقى الغربية خاصة لعزف قطع « الهارمونى » زيادة فى التحلية عند اللزوم ، أو لعزف القطع الحماسية . . . . فى المعسكرات الحربية كالبيانو (Piano) والكمان الاكبر (Contrebasse) والساكسوفون (Saxophone) والفيفرا (Fifre) الى غير ذلك من الآلات الوترية ، والنفخية والهوائية ، التى ليس لها — ويا للأسف اسماء عربية حتى اليوم ! !

وعلى هذا فالموسيقى الشرقية على العموم لا تزال بحاجة الى جهود جبارة ، وعزائم صادقة ، وهى فى دور نهضة مباركة تبشرنا بمستقبل قريب باهر ما؟

حماه : منير الحكم الطرابلسى

فى تضاعيف كلامه للحديث عن الوطن وآلامه كما كان يفعل دانتى لأرانا ضروباً من الحماس للوطن والتفانى فى سبيله ...

المعرى رجل يريد أن يداعب وأن يسخر . يريد أن يذكر للناس غريب اللغة ونحوها وعروضها . ثم هو يخاطب صديقاً له فلم يكن ثمت مجال لذكر الوطن أو الحديث عن الوطنية . ولكن دانتى كان أهم أغراضه فى رسالته بكاء الوطن . وإثارة الحمية فى النفوس للأخذ بناصر الشعب الذى تمزقت أوصاله ، ولعبت به الحروب الأهلية شنيع الألاعيب . فكنا نتلمس الوطنية فى كل خطوة من خطوات دانتى .. ونفقد ذلك فى رسالة الغفران. فهل ضعفت نزعة الوطنية عند المعرى ؟ ألم يطرب للمعرة والشآم ولتلك الربا والبطاح ؟ لقد كان أبو العلاء يطرب لدياره وبلاده . وكان مغرماً أشد الغرام بوطنه ومنبته . فنحن نراه يكره الخلود ويشيح عنه بوجهه ان كان مع الخلود انفراده عن أهله ووطنه . ثم هو يسخط على السحائب ان اختصته بغيثها ولم تهطل على كل بلاده تبل ثراها وتحيى مواتها فيقول :

ولو أنى حبيت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا نزلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

ثم يتمنى النعيم لوطنه وان فاته نعيمه . وتنزع نفسه أن يعود لبلاده وان كان فى يوم الحشر ، ويوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت فيقول :

فيا وطنى ان فاتنى بك سابق
من الدهر فلينعم لساكنك البال
فان أستطع فى الحشر آتك زائراً
وحيهات — لى يوم القيامة أشغال

ثم نراه يقيم فى بغداد والكرخ ، وبين الرصافة والجسر ، تلك التى شغفه الحنين اليها منذ نعومة أظفاره . وكان يتكلف بها فى شرخ الشباب ، فحققت له الكهولة أمنيته . قال :

كلفنا بالعراق ونحن شرخ فلم نلمم به إلا كهولا

بيد أنه لم تكد تمر عليه بضع ليال حتى حن لوطنه وتمنى قطرة من ماء المعرة يطفئ بها ظمأه فقال :

فيا برق ليس الكرخ دارى وانما
رمانى اليه الدهر منذ ليال

فهل فيك من ماء المرة قطرة
تغيث بها ظمآن ليس بسال ؟

لقد كان أبو العلاء يذكر وطنه كلما لمع السراب إبان الظهيرة وكلما جن عليه الليل واحتوته الظلمات ، ويستعذب ماء بلاده وان كان آسناً . عن ماء الكرخ وان كان كالصهباء . فيقول :

اذا جن ليلى جن لبى وزائد
خفوق فؤادى كلما خفق الآل[1]
وماء بلادى كان أنجع مشرباً
ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال[2]

ولم يكف المعرى أن يصدح بذكر بلاده وحده ، بل أشرك معه نياقه تلك التى تمنت قويقا[3] والصراة[4] حيالها . والتى كانت تطرب لضوء بارق الشام وان تعالى عن مستوى نظرها حتى ليسرها أن تقطع رؤوسها وترفع فرق أسنة الرماح لتشيم بارق الوطن ، والتى كانت تتلو زبوراً فى الحنين اليه ، مترنمة بقصائد أودعتها كل أشواقها لديارها فقال :

تلون زبوراً فى الحنين منزلا عليهن فيه الصبر غير حلال
وأنشدن من شعر المطايا قصيدة وأودعنها فى الشوق كل مقال

. . ولقد كان المعرى يستطيب الحديث عن بغداد وعما يحف بها من المشاهد . فيقول :

هات الحديث عن الزوراء[5] أو هيتا[6]
وموقد النار لا تكرى[7] بتكريتا[8]

ويجمل حفظ عهود أهلها من صلواته فيقول :

أعد من صلواتى حفظ عهدكم ان الصلاة كتاب كان موقوتا

ويتمنى أن تكون العراق تربته . وبها منيته . فيقول :

وكان اختيارى أن أموت لديكم حميداً فما ألفيت ذلك فى الوسع
فليت حمامى حم لى فى بلادكم وحالت رماى فى رياحكم المسع[9]

وجعل الاماء الوكع من بغداد أفصح من فصحاء البادية طبعوا على البيان واللسن . فقال :

وما الفصحاء الصيد والبدو دارها
بأفصح قولاً من إمائكم الوكع[1]

وتمنى أن يأتى على ما فى دجلة من ماء شرباً وجرعاً ليطفئ غلة حنينه نحو العراق فقال :

ألا زودونى شربة ولو اننى قدرت إذا أفنيت دجلة بالجرع

ويرجو أن يعود الى بغداد والكرخ ، والرصافة والجسر ، وألا يكون سيره عن ديارهم كرأى الملحد لا يرجو معادا ولا ينتظر إيابا للحياة ، بل رأى المؤمن يثق بالرجعى فيقول :

فلا كان سيرى عنكم رأى ملحد
يقول بيأس من معاد ومهجع

ثم يألم من الليالى التى تضن عليه بالرجوع الى بغداد ، فيقول :

أظن الليالى . وهى خود غوادر بردى الى بغداد ضيقة الذرع

ثم يدعو بالسلامة والنجاة لعارض تحدوه بوارقه يؤم الكرخ فيقول :

يا عارضا راح تحدوه بوارقه للكرخ سلمت من غيث ونجيتا

ثم يستسق لدجلة ويقى بعهده فيحرم على نفسه شرب مياه الأنهار من بعده كما حرم طالوت على قومه الشرب من النهر الذى ابتلاهم به ربهم فقال : إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى . وذلك حين يقول أبو العلاء

سقيا لدجلة والدنيا مفرقة حتى يعود اجتماع النجم تشتيتا
وبعدها لا أريد الشرب من نهر كأننا أنا من أصحاب طالوتا

ذلك هو طرب المعرى للعراق وتعلقه بدجلة ، فهل أنساه حب المعرة نعيم بغداد ؟ . وهل أنساه حب الشام حب العراق ؟ كلا ؛ فقد كانت لدى المعرى وطنية يراها فى كل شىء من حوله حتى فى النياق تتلو زبور الوطنية . وانجيل الشوق اليها ، وإن لم يذكر ذلك فى رسالة غفرانه ، ولم يتخيل عذاباً أليما لخائنى أوطانهم كما تخيل دانتى الذى افتن فى وصف هذا الصنف من الناس وتخير لهم أسفل دركات الجحيم . وأشدها هولاً وإيلاما .

وموعدنا بالحديث عن وطنية دانتى العدد القادم

يتبع

محمود احمد الشرقاوى

(١) السراب (٢) صبغ أحمر أى صهباء محمرة اللون
(٣) قويق نهر على باب حلب (٤) نهر ببغداد
(٥) بغداد (٦—٨) ثلاثتهن من نواحى بغداد
(٧) لا تضعف نارها ضعف من أخذه الكرى بعاقد جفنيه
(٩) ريح الزمال

(١) جمع وكعاء . وهى الحمقاء